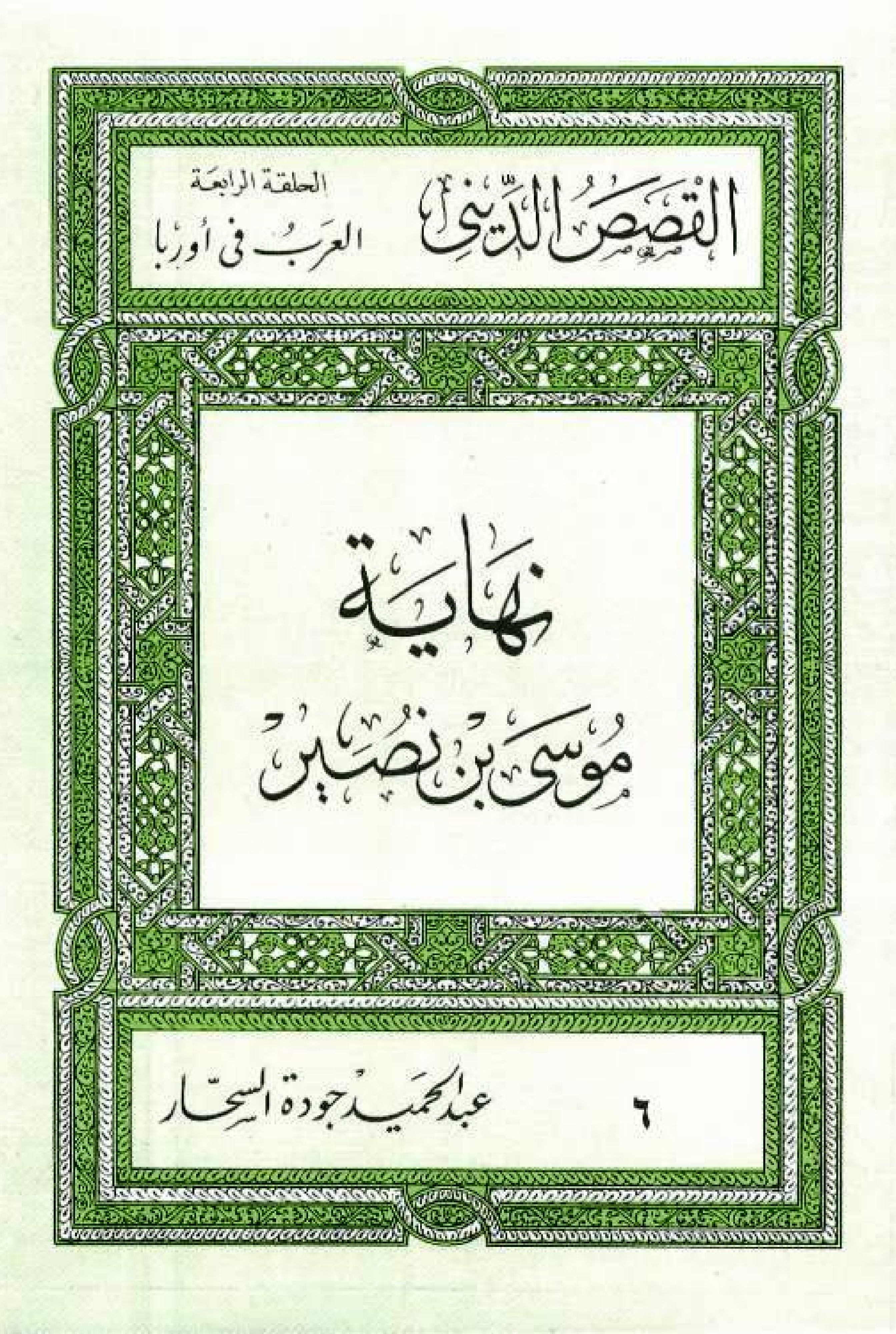

القصص الديني
الحلقة الرابعة
العرب في أوربا
نهاية
موسى بن نصير
عبد الحميد جودة السحار
٦

بسم اللّٰه الرحمن الرحيم

« وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَار ، وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ، وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا الأَنْهَارُ ، خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » .

(قرآن كريم)

١

بعثَ موسَى بنُ نُصَيْرٍ أبناءَ الملِكِ غَيْطَشَةَ ، الّذين اغتصبَ لُذْريقُ مُلكهم ، إلى أميرِ المؤمنينَ الوليد ابنِ عبدِ الملك بدِمَشق ، وكتب إليه بما عرَّفه به طارقٌ من جميلِ أثرِهم . فلمَّا وصلوا إلى الوليدِ أكرمَهم ، وأنفذَ لهم عهْدَ طارقٍ فى ضِياعِ والدِهم ، وعقدَ لكُلِّ واحدٍ منهم سِجلاًّ ، وجعَل لهم ألاَّ يقوموا لداخلٍ عليهم ، فقدِموا الأَندَلُس ، واستوْلَوْا على ضِياعِ أبيهم ، وتقاسموها ، فصارَ منها لكبيرِهم « ألموند » ألفُ ضَيْعَة فى غرب الأندَلُس ، فسَكَنَ من أجلِها إشبيلِيَّة ، ليكونَ قريبًا منها ، وصار « لأرطَباش » ألفُ ضَيْعَة ، وكانتْ فى مُوَسَّطة

الأَندَلُس ، سَكَن من أجلِها قرْطُبة . وصار لثالِثِهم « وَقْلة » ألفُ ضَيْعة في شرقِ الأندَلُسْ ، فسكن من أجلِها مدينة طُلَيْطِلَة .

وبلغَ الوليدَ توغُّلُ موسى في بلادِ الأَنْدَلُس فأشفقَ على المسلمين ، ورأى أن يكتفُوا بما بلغوه ، حتى لا يصيرَ إمدادُهم بالرِّجالِ والعَتادِ مُتعذّرا ، فبعث مُغِيثًا الرُّوميَّ مولاهُ إلى موسَى بن نُصَيْر .

كانت نفسُ موسى تتوقُ إلى دخول جِلِّيقِية ، إذْ لم يكن في الأَندلسِ بلدٌ لم يدخْله العربُ إلى وقتِه ذلك غيرُها ، فبينما هو يتأهَّب لذلك ، إذ أتاهُ مُغِيثٌ الرُّوميّ ، رسولُ الوَليد ، يأمُره بالخروجِ عن الأندَلُس ، والإضرابِ عن الوُغول فيها ، والرُّجوعِ إلى أميرِ المؤمنين ؛ فساءَه ذلك ، فقد كان شديدَ

الحرص على اقتحام جلِّيقية .

راح موسى يُلاطفُ مُغيثا ، ويسـألُه إنظـارَه إلى أن يُنْفِذَ عزمَه فى الدُّخول إليها ، والمسير معه فى البـلادِ أيَّاما ، ويكونَ شريكَه فى الأجرِ والغنيمـة ؛ فقبِـلَ مُغيث ، ومشى معه يفتحانِ الحُصون ، وكان العربُ والبربرُ كلّما مرَّ قومٌ منهم بموضِعٍ استحسنوه ، حطوًّا به ، ونزلُوه قاطنين ، فاتَسع نِطاقُ الإسلامِ بأرضِ الأندَلُس .

٢

استبطأ أميرُ المؤمنينَ الوليدُ بنُ عبدِ الملِك موسَى فى الرُّجوع إليه ، فأرسلَ أبا نصرٍ رسولاً إليه بعد مُغيث ، وكتبَ إلى موسى يُؤنِّبُه ، ويأمرهُ بالخروج ، وألزمَ رسولَه إزعاجَه ، وجاءَ أبو نصرٍ إلى موسى ،

وطلب منه الرُّجوع ، فتضايقَ موسى ، لأنه مُتلهِّفٌ على الجهاد ، وإنّه ليأمُلُ أن يختَرِقَ أورُوبّا ، ويقتَحِمَ فَرَنْسا وإيطالْيا وآسِيَا الصُّغْرى حتّى يصِلَ بالنّاس إلى الشّام مُؤَمِّلا أن يتّخِذ مُخْتَرَقَه بتلكَ الأرضِ طريقًا مُبينا يسلُكه أهلُ الأندَلُسِ فى مسيرِهم ومجيئِهم ، منَ المشْرِقِ إليه ، على البَرِّ ، لا يركبُون بحرا ؛ ولكنْ وصولُ رسولِ الخليفةِ قوّضَ أحلامَه ، وجعلَه يترُك جهادَه ، ليتأهَّب للقُفول .

خرج موسى من جِلّيقية ، ووافاه طارقٌ فى الطّريق ، فأرجعَه مع نفسِه ، ومضيا جميعا ، ومعهما من النّاس من اختارَ العودة ، وأقامَ من آثرَ السُّكنى فى مواضِعِهم الّتى كانوا اختَصُّوها واستوْطَنُوها ، وعاد معهم الرّسولان ، مُغيثٌ وأبو نصر ، حتى

نزلوا بإشبيليَّة ، فاستخلفَ موسى ابنَه عبدَ العزيزِ على إمارةِ الأندلُس ، وركِبَ موسى البحرَ إلى المشرِق ، سنةَ خمسٍ وتسعينَ هجريَّة ، وطارقٌ معه ؛ وحمل موسى الغنائمَ والسَّبْى ، وهو ثلاثونَ ألفَ رأس ، ومن الجواهرِ ونفيسِ الأمتعة ما لا يُقدَّرُ قدرُه .

وبلغ موسى المغرِب ، وسأل مُغيثًا أن يُسلِّم إليه صاحبَ قُرْطُبة ، الَّذى كان فى إسارِه ، فرفض وقال :

ـ لا يُؤَدِّيهِ للخليفةِ سواى .

فهجمَ عليه موسى ، وانتزَعَهُ منه ، فقيل له :

ـ إن سِرتَ به حيًّا معك ادَّعاه مُغيث ، وصاحبُ قُرطبَةَ لا يُنكِرُ قَوْلَه ، ولكن اضْرِبْ عُنُقَه ، ففعل ، فأضمرَها مُغيث ، وحَقَد على موسى ، واستخلفَ موسى على طنجةَ وما يليها من المغرِبِ ، ابنَه الآخرَ

عبدَ الملك ، فصار جميعُ الأندلُسِ والمغربِ بيدِ أولادِه .

وسار موسى فورَدَ الشَّام ، والوليدُ فى مرض الموت ، فلمَّا سمِع سُليمانُ ولىُّ العهدِ بقربِ موسى ابن نُصَيْرٍ من دِمَشْق ، كتب إليه يأمُرُهُ بالانتظارِ والتَّمهُّل ، رجاءَ أن يموتَ الوليدُ قبلَ قدومِ موسى ، فيَقْدَمُ موسى على سليمانَ فى أوَّلِ خلافتِه ، بتلك الغنائِم الكثيرة ، التى ما رُئِىَ ولا سُمِعَ مِثْلُها ، فيعظُمَ بذلك مَقامُ سليمانَ عندَ النَّاسِ ، فأبى موسى من ذلك ، ومنعَه دينُه منه وأَسرع فى السَّير ، حتى قدِمَ والوليدُ حىّ ، فسلَّمَ له الأخماسَ والمغانم ، والتُّحفَ والذّخائر ، ومن سوء حظِّ موسى ، أن مات الوليد .

٣

صار سليمانُ خليفةً ، فحقَدَ على موسى وأهانَه وأمر بإقامتِه في الشَّمس ، وكان رجُلا بادنا ، فوقف حتى سقطَ مغشِيًا عليه .

وقال له سليمان : « كتبتُ إليكَ فلم تنظُرْ كتابي ، هلمّ مِئةَ ألفِ دينار » .

فقال موسى : « يا أميرَ المؤمنين ، قد أخذتم ما كان معي من الأموال ، فمن أينَ لي مِئَةُ ألف ؟ » .

فقال سليمان : « لابدَّ من مِئَتَي ألف » .

فقال موسى : « من أينَ لي ذلك » .

فقال سليمان : « لابدَّ من ثلاث مِئَة ألفِ دينار » .

وأمر بتعذيبِه ، وأمر بقتلِه .

وألقى موسى بنفسِه على يزيدِ بنِ المُهَلَّب ، لمكانهِ من أميرِ المؤمنين ؛ وطلبَ منه أن يكلِّمَه في أن يُخفِّفَ عنه ، فقال له يزيد :

ـ أُريد أن أسألك ، فأصغ إليّ :

قال موسى : « سلْ عمَّا بدا لك » .

فقال له يزيد :

ـ لم أزلْ أسمعُ عنك ، أنَّك من أعقلِ النّاس ، وأعرَفِهم بمكايدِ الحُروب ، ومداراةِ الدُّنيا ، فقلْ لي : كيف حصلتَ في يدِ هذا الرَّجل ، بعد ما ملكتَ الأَنْدلس ، وألقيتَ بينكَ وبين هؤلاء القوم ، والبحرَ الزَّخّار ، وتيقنتَ بُعْدَ المَرام ، واستِصْعابَه ، واستخْلَصتَ بلادًا أنتَ اخترَعْتَها ، واستملكتَ رجالاً لا يعرفونَ غير خَيْرِك وشرِّك ، وحَصَلَ في

يدِك من الذّخائر والأموال ، والمعاقلِ والرِّجال ، ما لو أظهرتَ به الامتناع ، ما ألقيتَ عُنُقَك في يدِ من لا يرحَمُك ؟ ثمّ إنّك علِمتَ أنّ سُليمانَ وليُّ عهد ، وأنّه المولّى بعدَ أخيه ، وقد أشرفَ على الهلاكِ لا مَحالَة ، وبعدَ ذلك خالفتَه ، وألقيتَ بيدِك إلى التّهْلكَة ، وأحقدتَ سُليمَان وطارقا ، وما رِضا أميرِ المؤمنينَ سليمانَ عنك إلاّ بعيد ، ولكنْ لا آلو جُهدا .

فقال موسى : « يابنَ الكِرام ، ليسَ هذا وقتَ تعْديد ، أما سمعتَ : إذا جاءَ الْحيْن ، غطّى على العَيْن ؟ » .

فقال يزيد : « ما قصدتُ بما قلتُ لك تعديدًا ولا تبكيتا ، وإنّما قصدتُ تلقيحَ العقل ، وتنبيهَ الرّأي ، وأن أرَى ما عندك » .

فقال موسى : « أما رأيتَ الهُدْهُدَ يرَى الماءَ تحتَ الأرضِ عن بُعْد ، ويَقَعَ فى الفخّ وهو بمرأى عينهِ ؟ » .

٤

ودخلَ يزيدُ على سليمانَ بنِ عبدِ الملكِ ، وراح يشفعُ لموسى ، فقال سليمان :

ـ إنّه قد اغترَّ بما تمكّن له من الظُّهور ، وانقيادِ الجُمهور ، والتَّحكُّمِ فى الأموالِ والأنفس ، على ما لا يمحوه إلاَّ السَّيف ، ولكنّى قد وهبتُ لك دَمَه ، وأنا بعدَ ذلك غيرُ رافعٍ عنه العَذاب ، حتى يرُدَّ ما اختلسَ من مالِ اللّه .

وبعث سليمانُ بعضَ رجالِه إلى الأندلُس ، ليدُسَّ لعبدِ العزيزِ بنِ موسى ، أميرِ الأندلس ، الَّذى كان من خيرِ الوُلاة ، فراحوا يقولونَ للجُند : إنَّ

عبدَ العزيزِ قد تزوّجَ زوجَةَ لُذْريق ، وإنّها قالت له :

لِمَ لا يسجُد لك أهل مملكتِك ، كما كان يسجُدُ للُذريقَ أهلُ مملكتِه ؟

فقالَ لها : « إنَّ هذا حرامٌ فى دينِنا » .

فلم تقتنعْ منه بذلك وفهِم لكثرةِ شغَفِه بها ، أنَّ عدمَ ذلك مِمّا يُزرى بقدرِه عندَها . فاتّخذ بابًا صغيرًا قبالةَ مجلسِه ، يدخلُ عليه النّاسُ منه فينحنَون ، وأفهمها أنَّ ذلك الفعلَ منهم تحيةٌ له ، فرضِيت بذلك .

وظلَّ رجالُ سليمانَ ينفُثونَ سمومَهم بينَ الجند حتّى ثاروا وقتلوا عبدَ العزيز : وخرجوا برأسِه إلى سليمان ، وإنّه لما أُحضِرَ إلى سُليمان ، دخل عليه موسى بنُ نُصَيْر ، فقال له سُليمان :

ـ أتعرِفُ هذا ؟

فنظر موسى إلى رأسِ أخِيه ، وقال :

ـ نعمْ أعرِفُه ، صوَّامًا قوَّامـا ، فعليـه لعنـه اللّـه إن كان الَّذى قتلَهُ خيرًا منه .

٥

كان سليمان يطلـبُ من موسـى أن يؤدِّىَ لبيتِ مـالِ المُسلمين مائةَ ألـف ، فـراح يطـوفُ أحيـاءَ العرَب ، وليسَ معه إلاَّ مولًى وفىٌّ له ، يسألانِ النّاس أنْ يعاونُوا موسى فى جمـعِ مـا يطلبُـه منه سليمان ، فواحدٌ يجيبُهُما ، وآخرٌ يحتجِبُ عنهما ، ولرُبَّما دفـع إليهمـا علـى وجـهِ الرَّحمـة ، الدِّرْهـمَ والدِّرْهميْـن ، فيفرحُ بذلك الأمير ، الَّـذى كـانتِ الأندلُـس كلُّهـا ملكَ يمينِه ، ليدفعَه إلى الموكَّلين به ، فيخفِّفوا عنه من العذاب .

كانت جنودُ موسى أيَّامَ الفتُوحِ العظيمةِ في الأندلس ، تأخذُ الأسلابَ من قصورِ الملوك ، فتفصِل منها ما يكونُ فيها من الذّهب ، وترمي ما عداه ، ولا تأخذُ إلاّ الدُّرَّ الفاخر ؛ فأصبح موسى الأميرُ العظيم ، الّذى كانت كلمةٌ منه تُفرِحُ ملوكًا وأصحابَ تيجان ، تنفرجُ أساريرُه لِدرْهمٍ أو دِرْهميْن !

وانطلق موسى ومولاهُ يدورانِ على أحياء العرب ، حتّى نفِد صبرُ موْلاه . فعزَم على أن يترُكَه ، وهو بوادى القُرَى فى أسوإِ حال ، وشعر بذلك موسى ، فقال لمولاه :

ـ أتترُكنى فى هذِهِ الحال ؟

كان المولَى فى ضجَرٍ شديد ، فقال له :

- قد أسلمك خالقُك ومالِكُك ، الّذى هو أرحمُ الرَّاحِمِين .

فدمَعتْ عينا موسى ، وجعل يرفعُهما إلى السَّماء خاضعا ، وهو يبتهلُ إلى اللّه ، أن يريحَه مِنَ العذابِ الّذى يُقاسيه ، فما انقضتْ تلك اللَّيلة إلاَّ عن قبضِ روحه .

وماتَ الشَّيخُ الّذى جاهدَ فى سبيل اللّه ، ودوَّخَ مُلوكَ القُوط ، ودكَّ عروشهم ، وملأ ذكرُه المشرقَ والمغرب ، وهو من أفقرِ النَّاسِ وأذلّهم ، ولكنَّ اسمَه ظلَّ خافقا ، وما ادَّخره فى السَّماء ، كان أعظمَ من كلِّ كنوزِ الأرضِ ، وعروشِ الملوكِ ، والسُّلطانِ العريضِ الذّى يتقلّصُ ظِلّهُ بموتِ صاحِبه .